تقديم

لم تصل إلينا نظرة السلف الكلية للسياق القرآني وقد كانت موجودة بلا ريب جاء في الإتقان للسيوطي (وقال ابن العربي في سراج المريدين: ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى يكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني منتظمة المباني علم عظيم لم يتعرض له إلا عالم واحد عمل فيه سورة البقرة، ثم فتح الله لنا فيه فلما لم نجد له حملة ورأينا الخلق بأوصاف البطلة ختمنا عليه وجعلناه بيننا وبين الله ورددناه إليه. وقال غيره: أول من أظهر علم المناسبة الشيخ أبو بكر النيسابوري، وكان غزير العلم في الشريعة والأدب وكان يقول على الكرسي إذا قرئ عليه: لم جعلت هذه الآية إلى جنب هذه، وما الحكمة في جعل هذه السورة إلى جنب هذه السورة؟ وكان يزري على علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبة.) وما وصل إلينا من كلام المتأخرين فيه تكلف ومبالغة لم تكن معهودة عند السلف ولا هى مناسبة لأحسن الحديث . لكن بقي لنا من نظرتهم الكلية تقسيمهم للأرباع لأنه لم يكن تقسيما كميا ويكفيك أن تنظر في سورة العاديات وهي سورة قصيرة لكنهم جعلوا الربع في ثناياها

من أول قوله تعالى (أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور) رعاية للمعنى في سورة القارعة

وقد راعيت في محاولتي لفهم حكمة تقسيم الأرباع أن أذكر الصلة بين آخر الربع والذي يليه طردا لعادة ذهنية عند الحفظة والحافظات من الصبيان والكبار تدفعهم للغفلة عن الصلة بين أول الربع وسابقه

ثم ذكرت علة الفصل بين الربعين لتتضح رؤية السلف ونظرتهم إن هذا التقسيم كنز عظيم القيمة لأنه من أوان التابعين الأول بعد الصحابة الكرام

وقد اكتفيت بسورة البقرة لضعيف جهدي راجيا أن يتم بفضل الله بعد بيراعي أو يراع فاضل نجيب غيري

ولم أدخل سورة الفاتحة في البحث لأنها أم الكتاب

ولكن قدمت بذكر مناسباتها

وبالله التوفيق

مناسبات فى سورة الفاتحة

د) يقصد به معنيان 1- الثناء على الله ووصف ذاته بالجميل

2- الفاعلية والتأثير

لمعنى الثانى حديث النبى صلى الله عليه وسلم

م لك الحمد كله اللهم لا قابض لما بسطت ولا

ما قبضت ولا هادي لما أضللت ولا مضل لمن

ولا معطي لما منعت ولا مانع لما أعطيت ولا

لما باعدت ولا مباعد لما قربت اللهم ابسط علينا

كاتك ورحمتك وفضلك ورزقك اللهم إني أسألك

المقيم الذي لا يحول ولا يزول اللهم إني أسألك

وم العيلة والأمن يوم الخوف اللهم إني عائذ بك

شر ما أعطيتنا وشر ما منعت اللهم حبب إلينا

ان وزينه في قلوبنا وكره إلينا الكفر والفسوق

سيان واجعلنا من الراشدين اللهم توفنا مسلمين

نا مسلمين وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا
ونين اللهم قاتل الكفرة والذين يكذبون رسلك
ن عن سبيلك وأجعل عليهم رجزك وعذابك اللهم
قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب إله الحق

الحديث بذكر الحمد ثم شرح أنه كله لله الفعل
ه . القبض والبسط والهدى والضلال والقرب
والبعد
والعطاء والمنع
ثم دعا بناء على ماذكر
(اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك
اللهم إني أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا
اللهم إني أسألك النعيم يوم العيلة والأمن يوم
الخوف)
ء والمنع(اللهم إني عائذ بك من شر ما أعطيتنا
وشر ما منعت)

ك جاء فى الحديث (أفضل الدعاء الحمد لله)وفى
(شَكَا النَّاسُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
الْمَطَرِ فَأَمَرَ بِمِنْبَرٍ فَوُضِعَ لَهُ فِي الْمُصَلَّى وَوَعَدَ
وْمًا يَخْرُجُونَ فِيهِ قَالَتْ عَائِشَةُ فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ
لَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ بَدَا حَاجِبُ الشَّمْسِ فَقَعَدَ عَلَى
كَبَّرَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَحَمِدَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ ثُمَّ
مْ شَكَوْتُمْ جَدْبَ دِيَارِكُمْ وَاسْتِئْخَارَ الْمَطَرِ عَنْ إِبَّانِ
عَنْكُمْ وَقَدْ أَمَرَكُمْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ تَدْعُوهُ وَوَعَدَكُمْ
أَنْ يَسْتَجِيبَ لَكُمْ ثُمَّ قَالَ
لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ
{
إِلَّا اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ اللَّهُمَّ أَنْتَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ
نَحْنُ الْفُقَرَاءُ أَنْزِلْ عَلَيْنَا الْغَيْثَ وَاجْعَلْ مَا أَنْزَلْتَ
وَبَلَاغًا إِلَى حِينٍ ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ فَلَمْ يَزَلْ فِي الرَّفْعِ
بَيَاضُ إِبِطَيْهِ ثُمَّ حَوَّلَ إِلَى النَّاسِ ظَهْرَهُ وَقَلَبَ أَوْ
دَاءَهُ وَهُوَ رَافِعٌ يَدَيْهِ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ وَنَزَلَ

ى رَكْعَتَيْنِ فَأَنْشَأَ اللَّهُ سَحَابَةً فَرَعَدَتْ وَبَرَقَتْ ثُمَّ
تْ بِإِذْنِ اللَّهِ فَلَمْ يَأْتِ مَسْجِدَهُ حَتَّى سَالَتْ السُّيُولُ
ى سُرْعَتَهُمْ إِلَى الْكِنِّ ضَحِكَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
تْ نَوَاجِذُهُ فَقَالَ أَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ
وَأَنِّي عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ
دَاوُد وَهَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ إِسْنَادُهُ جَيِّدٌ أَهْلُ الْمَدِينَةِ
يَقْرَءُونَ
{ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ })
ومن أذكار الصلاة (سمع الله لمن حمده)
ما يدل على علاقة الحمد بالقدرة وذلك في قوله
[وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ
اوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ (73) فَلَا
ا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (74)
اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ
مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ
نَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (75)} فالعبد

ك الذى لا يملك لأنه مملوك ولا يقدر على شىء
وب كمثل لما فى الآية (73) وعكسه مضروب
مثل لأفعال الله ثم يجئ التعقيب (الحمد لله)
اختص يوم القيامة بذكر الحمد (يوم يدعوكم
فتستجيبون بحمده)
ه الحمد فى الآخرة) لتفرده سبحانه بالفعل فيه
ه تعالى (الرحمن الرحيم) مناسبته بما سبق ان
الاسمين يدل على الفاعلية فالرحمن صفة ذات
حيم صفة فعل أى أنه رحمن يرحم كقولنا حى
محيى وغنى مغنى ومثلها غنى حميد
ك يوم الدين) مناسبتها للحمد ذكرناها آنفا , أما
بتها ل (الرحمن)فإن الرحمن صفة الملك ولذا
رنت بالعرش فى الكتاب وجاءت فى معنى
ة(ما يمسكهن إلا الرحمن) وفى سورة مريم (يا
ى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن) أى مالك
ة الذى إن عذبك فلا يملك أحد أن يرحمك (لا

ى إلا من أذن له الرحمن)إن يردن الرحمن بضر
عني شفاعتهم)(**يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ**
ت الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا (108)
لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ
لَهُ قَوْلًا (109)

جاء قوله (خشى الرحمن بالغيب) مرتان
وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ
إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ
بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ (11) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى
مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ
مُبِينٍ (12))

وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (31) هَذَا مَا
ونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (32) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ
بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (33)

ا مناسبتها ل(الرحيم) فإن يوم القيامة هو يوم
الرحمة الهائلة الجنة التى لا يتخيلها أحد والأمن
من أهوال الحساب
سل أن يوم القيامة يوم رحمة قال تعالى (كتب
على نفسه الرحمة ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا
فيه الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون) فنفس
ان نعمة .نعمة الوجود والخلود انمحاء مشكلة
ن المحدود بالواجبات والمواعيد النعيم المقيم
ه تعالى(غير المغضوب عليهم ولا الضالين)
نه بالحمد أن المغضوب عليم والنصارى بنيت
نتهم على نفى الفعل عن الله موافقة للفلاسفة
ين قبلهم حيث افترضوا عدم جواز اتصاف الله
ادة والعلم تنزيها له ثم كان العقل الأول عند
ة والمسيح عند النصارى الذى سيحاسب الخلائق
يوم الدين

بالرحمة نفهمه من حديث النبى صلى الله عليه
سلم(إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه
ونستغفره)
حيث وافق الفاتحة لفظا وترتيبا حتى قوله
ديه)ومناسبة قضية المغفرة باليهود أنهم رفضوا
مغفرة الله لهم
نَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا
وا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ
دُ الْمُحْسِنِينَ (58) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ
لَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ
كَانُوا يَفْسُقُونَ) فلذا استحقوا صفة الغضب
النصارى فبنوا على قضية الخطيئة والغفران
رهاتهم المعروفة فاستحقوا صفة الضلال

سورة البقرة

الربع الأول من القرآن الكريم انتهى عند الآية الخامسة والعشرين وهى تتحدث عن جزاء المؤمنين الذين يعملون الصالحات سبقت بآية تتحدث عن جزاء الكافرين

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (24) وَبَشِّرِ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (25))

الربع من أول البقرة حتى الآية العشرين يتحدث عن صفات المتقين وغيرهم من المنافقين والكافرين أما سورة الفاتحة فهي جامعة الكتاب وقد جاء الحديث فيها عن الصنفين

ثم ابتدأ الربع الثانى بقوله تعالى(إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آَمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (26))

والعلاقة بين آخر الربع الأول وأول الربع الثانى هى الخروج عن حكم المادة قال تعالى (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (23)) مادة الكلمات فى القرآن هى نفس مادة الكلمات عندنا حروف واحدة ولكن كان للمعنى وللفكرة الغلبة القاهرة

قال تعالى ((فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (24))

اختلف حكم الحجارة والناس فى المادة ولكنهما تماثلا فى المعنى فكانت الغلبة للمعنى فجمعا معا فى الجحيم قال تعالى فى نفس

السورة(ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً) ومن المدهش أن نلاحظ أن هذه الآية جاءت بعد الحديث عن إحياء الميت بلحم البقرة المذكاة وهى بتذكيتها خرجت عن حكم الميتة فشاكلت الإحياء وقد جاءت المشاكلة بين موت القلوب والميتة غير المذكاة في سورة الأنعام(وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (121) أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (122))حيث يشير السياق إلى أن الإنسان الذي ليس في جوفه ذكر الله كالميتة أو الذبيحة التي لم يذكر عليها اسم الله

ثم استمر السياق في سورة البقرة فأخبرنا عن نعيم أهل الجنة حيث سيؤتون بثمار متشابهة حتى ليقولوا قد رزقناه من قبل فهذا حكم الظاهر من المادة ولكن اختلفت الثمار فى الطعوم والمذاقات

سقط هنا حكم الشكل واللون وفى أول الربع الثانى سقط حكم الحجم وثبت حكم الفكرة وراء ضرب المثل حكمة قد تكون فى استخدام البعوضة للبيان أو فى الفيل والحصان

ثم تأتى قصة إبليس وموقفه من السجود لآدم وهو موقف مادي بامتياز لأنه علل أفضليته على آدم بمادة خلقه وبمادة خلق آدم

الربع الثانى

تكرر الحديث فيه عن نقض العهد (وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (26) الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ)

ثم قصة آدم (وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آَدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (115)) طه . ثم مخاطبة بنى إسرائيل (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (40)

وقد كان المتوقع أن تجتمع الآية السابقة مع أختها (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (47)) فى ربع واحد ولكنهما فصلا لعلاقة الأولى بسياق الحديث عن نقض

العهد والثانية بسياق منّ الله على بنى إسرائيل بالنعم حيث جاء فى

الربع الثالث

ذكر نعمة النجاة من عذاب آل فرعون ....ونعمة فرق البحر ونعمة إغراق آل فرعون ونعمة نظرهم لهم وهم يغرقون..... والعلاقة بين ذكر النجاة وذكر الصلاة ما ورد فى سورة يونس({ وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين }

أوحى الله تعالى إلى موسى وأخيه هارون عليهما السلام أن يتخذا لقومهما بيوتا مميزة فيما بينهم عن بيوت القبط ليكونوا على أهبة الرحيل إذا أمروا به ليعرف بعضهم بيوت بعض

وقوله : { واجعلوا بيوتكم قبلة } قيل مساجد وقيل معناه كثرة الصلاة فيها

قال مجاهد وأبو مالك وإبراهيم النخعي والربيع والضحاك وزيد بن أسلم وابنه عبد الرحمن وغيرهم

ومعناه على هذا : الاستعانة على ما هم فيه الضر والشدة والضيق بكثرة الصلاة كما قال تعالى : { واستعينوا بالصبر والصلاة } وكان رسول الله صلى الله عليه و سلم إذا حزبه أمر صلي

وقيل معناه : أنهم لم يكونوا حينئذ يقدرون على إظهار عبادتهم في مجتمعاتهم ومعابدهم فأمروا أن يصلوا في بيوتهم عوضا عما فاتهم من إظهار شعائر الدين الحق في ذلك الزمان الذي اقتضى حالهم إخفاءه خوفا من فرعون وملئه والمعنى الأول أقوى لقوله : { وبشر المؤمنين } وإن كان لا ينافي الثاني أيضا والله أعلم

وقال سعيد بن جبير : { واجعلوا بيوتكم قبلة } أي متقابلة

ثم ذكر نعمة العفو عنهم بعد اتخاذهم العجل وسنلاحظ اتحاد التعبير عن التوبة فى موقف آدم عليه السلام وموقفهم (فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم) (فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم) ثم بعثهم من بعد موتهم لكن لم يتم العفو عنهم حين استكبروا عن السجود وطلب المغفرة كما لم يعف عن إبليس لاستكباره والعجيب أنهم وعدوا على استغفارهم بالمغفرة (وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا

حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (58) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ) ونلاحظ اتحاد التعبير عن رغدهم الموعود ورغد آدم عليه السلام(رغدا حيث شئتما) (حيث شئتم رغدا) وهنا ينتهى الربع الثالث لانتهاء المشابهة بينه وبين الثانى

فى قصة آدم عليه السلام وقصة السجود والاستكبار

ولأن أثر هذه المواقف قد مرّ بخلاف أثر الموقف المذكور فى أول الربع الرابع فإنه باق إلى اليوم (قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (61))

وختم الربع بقصة البقرة لأن الربع الخامس ابتدئ بالحديث عن الحاضر لا عن الماضي وبمخاطبة المؤمنين والعلاقة بين آخر الرابع وأول الخامس هى قسوة القلب وتحجره (ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ

مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (74) أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (75) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (76)) الآيات . لأن الجرأة على تحريف كلام الله وكتمانه ونحوه إنما ينبع من قسوة القلب بدليل ما جاء فى سورة المائدة(فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ) جاء في الظلال(انقضى المقطع السابق في السورة في تذكير بني إسرائيل بأنعم الله عليهم وجحودهم لهذا الإنعام المتواصل؛ وباستعراض مشاهد الإنعام والجحود ، بعضها باختصار وبعضها بتطويل؛ وانتهى هذا الاستعراض بتقرير ما انتهت إليه قلوبهم في نهاية المطاف من قسوة وجفاف وجدب ، أشد من قسوة الحجارة وجفافها وجدبها) (كانت صورة الجفاف والقسوة والجدب هي التي صور الله بها قلوب بني إسرائيل في نهاية الدرس الماضي . صورة

الحجارة الصلدة التي لا تنض منها قطرة ، ولا يلين لها ممس ، ولا تنبض فيها حياة . . وهي صورة توحي باليأس من هذه الطبيعة الجاسية الجامدة الخاوية . . وفي ظل هذا التصوير ، وظل هذا الإيحاء ، يلتفت السياق إلى المؤمنين ، الذين يطمعون في هداية بني إسرائيل ، ويحاولون أن يبثوا في قلوبهم الإيمان ، وأن يفيضوا عليها النور . . يلتفت إلى أولئك المؤمنين بسؤال يوحي باليأس من المحاولة ، وبالقنوط من الطمع :

{ أفتطمعون أن يؤمنوا لكم؟ وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ، ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون؟ } . .

ألا أنه لا مطمع ولا رجاء في أن يؤمن أمثال هؤلاء . فللإيمان طبيعة أخرى ، واستعداد آخر . إن الطبيعة المؤمنة سمحة هينة لينة ، مفتحة المنافذ للأضواء ، مستعدة للاتصال بالنبع الأزلي الخالد بما فيها من نداوة ولين وصفاء . وبما فيها من حساسية وتحرج وتقوى . هذه التقوى التي تمنعها أن تسمع كلام الله ثم تحرفه من بعد تعقله .)

والحديث عن التحريف فى الربع جاء على عدة أنواع

النوع الأول :الحديث عن تغيير الكلام نصا أو تأويلا (أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (75))

النوع الثاني :الكتمان (وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آَمَنُوا قَالُوا آَمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (76))

جاء في الظلال (ولكن : { إذا خلا بعضهم إلى بعض } . . عاتبوهم على ما أفضوا للمسلمين من صحة رسالة محمد - صلى الله عليه وسلم - ومن معرفتهم بحقيقة بعثته من كتابهم ، فقال بعضهم لبعض : { أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم } . . فتكون لهم الحجة عليكم؟ . . وهنا تدركهم طبيعتهم المحجبة عن معرفة صفة الله وحقيقة علمه؛ فيتصورون أن الله لا يأخذ عليهم الحجة إلا أن يقولوها بأفواههم للمسلمين! أما إذا كتموا وسكتوا فلن تكون لله عليهم حجة! . . وأعجب العجب أن يقول بعضهم

لبعض في هذا : { أفلا تعقلون؟ } . . فيا للسخرية من العقل والتعقل الذي يتحدثون عنه مثل هذا الحديث!!

ومن ثم يعجب السياق من تصورهم هذا قبل أن يمضي في استعراض ما يقولون وما يفعلون :

{ أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون؟ } . .

النوع الثالث :افتراء كلام جديد ونسبته لله تعالى (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (79))

النوع الرابع :الكذب على النفس(وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (80) بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (81) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (82))

كما جاء فى سورة الأنعام (وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (22) ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ

إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (23) انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (24))

النوع الخامس :الإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعضه (أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (85) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآَخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (86))

تبين الآيات فى هذا الربع أن علة التحريف حب الدنيا كهذه الآية وأيضا الآية (79) المذكورة فى النوع الثالث وقد جاء ذلك فى آخر ربع (إن الصفا) (إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (174) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ (175))

ثم جاء فى ربع (أفتطمعون) ذكر سبب آخر وهو الهوى والكبر (وَلَقَدْ آَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (87))

ثم تلاه ذكر سبب آخر وهو التحيز للذات وليس للحق ويتبعه الحسد (وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (89) بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (90)) وذكر الإهانة هنا يتناسب مع علة الكفر وهو البغى ورفع النفس على غيرها ولعل فى التعبير بشراء النفس إشارة للمسألة النفسية.

وفى الحركات الإسلامية اليوم شبه من هذا النوع الأخير رفض لفضل ذوى الفضل ورفض للخير الذى عند الآخر حتى ليصل إلى مفهوم القضية الدينية ذاتها من ناحيتين الأولى :ناحية العلاقة بين حقائق الدين وتقديم بعضها على بعض

الثانية :تغيير حقائق الدين خضوعا للعصر ونصرا للاختيار الحركي ولا يخرج عن هذا بعض من يبالغون فى العودة للسلف فإنهم قالوا بأن عدم الخروج على الحاكم مطلقا أصل من أصول أهل السنة والجماعة ومن المعلوم أن الحسين رضى الله عنه ومالكا لا يمكن أن يخالفا الأصول .

والعلاقة بين آخر الخامس وأول السادس يبينها صاحب الظلال (وما لهم وللحق؟ وما لهم أن يكون مصدقاً لما معهم! ما داموا لم يستأثروا هم به؟ إنهم يعبدون أنفسهم ، ويتعبدون لعصبيتهم . لا بل إنهم ليعبدون هواهم ، فلقد كفروا من قبل بما جاءهم أنبياؤهم به . . ويلقن الله نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يجبههم بهذه الحقيقة ، كشفاً لموقفهم وفضحاً لدعواهم :

{ قل : فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين؟ } . .

لم تقتلون أنبياء الله من قبل ، إن كنتم حقاً تؤمنون بما أنزل إليكم؟ وهؤلاء الأنبياء هم الذين جاؤوكم بما تدعون أنكم تؤمنون به؟ لا بل إنكم كفرتم بما جاءكم به موسى - نبيكم الأول ومنقذكم الأكبر- :

{ ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون } . .

فهل اتخاذكم العجل من بعدما جاءكم موسى بالبينات ، وفي حياة موسى نفسه ، كان من وحي الإيمان؟ وهل يتفق هذا مع دعواكم أنكم تؤمنون بما أنزل إليكم؟

ولم تكن هذه هي المرة الوحيدة . بل كان هنالك الميثاق تحت الصخرة ، وكان هناك التمرد والمعصية :

{ وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور : خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا . قالوا : سمعنا وعصينا ، وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم } . .

والسياق هنا يلتفت من الخطاب إلى الحكاية . . يخاطب بني إسرائيل بما كان منهم ، ويلتفت إلى المؤمنين - وإلى الناس جميعاً - فيطلعهم على ما كان منهم . . ثم يلقن الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يجبههم بالترذيل والتبشيع لهذا اللون من الإيمان العجيب الذي يدعونه إن كان يأمرهم بكل هذا الكفر الصريح :

{ قل : بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين! } . .

وعلة الفصل أن بداية الربع آيات سبقت فى السورة فقوله تعالى (وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (92)) جاء فى ربع (أتأمرون)

(وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (51))

وقوله (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آَتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ) جاء فى ربع (وإذ استسقى) (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آَتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (63))

وقوله تعالى : (قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآَخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (94)) سبق موضوعه فى الربع السابق ((وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (80))

وهذه المسألة الأخيرة فيها بيان لتحيزهم لذاتهم بغير حق حتى فى شأن الآخرة ويستمر السياق ليبين لنا أن التحيز لم يقتصر على

التفريق بين ما أنزل الله عليهم وما أنزل على غيرهم بل وصل للتفريق بين ملك وملك (قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (97)) والعلاقة بين آخر هذا الربع والربع السابع أن الآية الأخيرة فى هذا الربع تبين كراهية الكفار من أهل الكتاب والمشركين أن ينزل على المسلمين الخير ولما كانوا لا يستطيعون صرف هذا الخير فإنهم حاولوا صرف المسلمين عنه من خلال استخدام قضية النسخ فى التشكيك والفتنة

وعلة الفصل أن أكبر قضايا النسخ التى أثارت فورة الجدل والتشكيك كانت تحويل القبلة فجاء فى هذا الربع قوله تعالى: (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (114) وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (115)) كما جاء قوله تعالى : (وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ

مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (120))مشابها لما جاء فى ربع (سيقول السفهاء) (وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (145)) وقد جاءت بداية الربع الذى يليه معاضدة لقضية تحويل القبلة ثم جاءت بداية الربع الأول من الجزء الثانى حتى الربع الخامس كلها تتحدث عن القبلة والبيت الحرام والحج

والعلاقة بين آخر السابع وأول الثامن عدم نفع الأرحام ولا غيرهم فى مسألة الجزاء يوم القيامة (وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (123) وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (124)) كما جاء فى سورة لقمان (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (33)) ومن البديع أن تجيء هذه الآية فى سورة لقمان الذى كان يعظ ابنه ولا يملك

الوالد لابنه غير التربية والعظة والدعاء فى الدنيا أما الآخرة فلا يجزى أحدهما عن الآخر شيئا .وفى هذا الربع أيضا يقول البيضاوي({ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ } يعني إبراهيم ويعقوب وبنيهما ، والأمة في الأصل المقصود وسمي بها الجماعة ، لأن الفرق تؤمها . { لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُم } لكل أجر عمله ، والمعنى أن انتسابكم إليهم لا يوجب انتفاعكم بأعمالهم ، وإنما تنتفعون بموافقتهم واتباعهم ، كما قال عليه الصلاة والسلام : « لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم » { وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ } أي لا تؤاخذون بسيئاتهم كما لا تثابون بحسناتهم .) ..... ({ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُم وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ } تكرير للمبالغة في التحذير والزجر عما استحكم في الطباع من الافتخار بالآباء والاتكال عليهم . قيل : الخطاب فيما سبق لهم ، وفي هذه الآية لنا تحذيراً عن الاقتداء بهم . وقيل : المراد بالأمة في الأول الأنبياء ، وفي الثاني أسلاف اليهود والنصارى .)

الجزء الثانى

العلاقة بين أول هذا الربع وآخر الربع الثامن هى المفاصلة بين الأمم (قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (142) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا)

وفى آخر الثامن قوله تعالى { تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُم وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ }

ثم يبدأ الربع الثاني من الجزء الثانى بقوله تعالى {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ (158)} والعلاقة بينه وبين آخر سابقه هى ذكر السعي بين الصفا والمروة كمثال للصلوات والرحمة التي تحل بالصابرين حيث صبرت السيدة هاجر عليها السلام فكانت الصلوات أن جعل سعيها من شعائر الله إلى آخر حاج لبيت الله المحرم فيخلد ذكرها ويعاد ,وكانت الرحمة أن الذي خلد وقدس لم يكن صبرها وجلدها وإنما كان هلعها وأخذة

قلبها وضعفها الإنساني ليذكرنا بما قال وهب بن منبه (أوحى الله تعالى الى بعض أنبيائه بعيني ما يتحمل المتحملون من أجلي وما يكابد المكابدون في طلب مرضاتي .....) والآيات قبلها هي قوله تعالى {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (156) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (157)}

كما يجب أن نلاحظ رحمة الله تعالى وتحننه ورأفته في الربع السابق أيضا حيث ركز الحديث على حالة شوق النبي صلى الله عليه وسلم لتغيير القبلة بقوله تعالى { قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا } يقول الشيخ سيد قطب (ولقد أجابه ربه إلى ما يرضيه . والتعبير عن هذه الاستجابة يشي بتلك الصلة الرحيمة الحانية الودود :

{ فلنولينك قبلة ترضاها } . .) وفى الألوسي (أي كثيراً ما نرى تردد وجهك وتصرف نظرك في جهة السماء متشوفاً للوحي) وفى تفسير ابن عاشور (ولما كان علم الله بذلك مما لا يَشُك فيه النبي

صلى الله عليه وسلم حتى يُحتاجَ لتحقيق الخبر به كان الخبر به مع تأكيده مستعملاً في لازمه على وجه الكناية لدفع الاستبطاء عنه وأن يُطَمئِنَهَ لأن النبي كان حريصاً على حصوله ويَلزم ذلكَ الوعدُ بحصوله فتحصل كنايتان مترتبان .)

وقد جاء قبلها قوله تعالى { وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (143)}

وتظهر الرعاية والرأفة والرحمة فى تعليل القرآن لتحويل القبلة { لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (150)} ثم تبين الآية التي تليها أن هذه النعمة والرحمة تماثل ما سبق من الرحمة فتبدأ الآية بحرف تشبيه { كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (151)} الإشارة إلى الرعاية والرحمة فى موقف السيدة هاجر وهلعها وكثرة تقلب وجه الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم والحماية من محاجة أهل الكتاب

إشارة يتسع فيها مجال القول ويفيض . أما قول الجليل سبحانه { فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ} فماذا يمكن أن يقال فيه .

ثم يأتى الحديث فى الربع الثانى عن الطرد من الرحمة عن اللعن

{إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (159) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (160) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (161) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (162) وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (163)}

وقد مر ما شابه قوله تعالى { إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (160)} مرتان

{ فَتَلَقَّى آَدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (37)}

{ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (54)}

وجاء طلبا للتوبة قوله تعالى {رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (128)}

فهذه أربع مواضع اقترن فيها اسم التواب بالرحيم وفى باقى القرآن موضعان لابد أنك بذكائك علمت أنهما فى سورة ..... التوبة .....

ثم ابتدأ الربع الثالث من الجزء الثانى ببيان حقيقة البر وأنه ليس في تولية الوجوه قبل المشرق والمغرب وفصل عن سابقه لموضوع كتمان الكتاب حيث جاء فى أول الربع وآخره ومن البديع أن نلاحظ أن الربع الثانى ختم بالحديث عن أكل الحرام وكذلك الربع الثالث حيث جاء فى آخر الثانى قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (172) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (173) إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ

الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (174) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ (175)}

وفي آخر الثالث { وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (188)}

والعلاقة بين الربعين أن آخر آية فى الثانى تتحدث عن الشقاق والخلاف وأول آية فى الثالث تتحدث عن أن الخلاف فى غير خلاف لأن حقيقة البر ليست فى تولية الوجه شرقا أو غربا وإذا لم تكتب عليكم قبلتهم فقد كتب عليكم الصيام كما كتب عليهم .

ويتميز الربع الثالث بمجيء لفظ (كتب عليكم) ثلاث مرات ولفظ (لعلكم) ثلاث مرات مرتان (لعلكم تتقون) ومرة (لعلكم تشكرون) وجاءت مرة (لعلهم يرشدون)

ومرة (لعلهم يتقون)فهذه خمسة من كلمة لعل وتوجد خمسة آيات ختمت بلفظ التقوى منها الثلاثة السابقة ومرتان (وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) (حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ)

فهذه وحدة أسلوبية

وبدأ الربع الرابع ببيان حقيقة البر كما بدأ الثالث وأن حقيقته في التقوى وكما جاء الحديث فى الثالث عقب فريضة الصيام عن المال جاء الحديث فى الرابع عن المال عقب فريضة الحج . قال الزمخشري ({ فَضْلاً مّن رَّبُّكمْ } عطاء منه وتفضلاً ، وهو النفع والربح بالتجارة ، وكان ناس من العرب يتأثمون أن يتجروا أيام الحج ، وإذا دخل العشر كفوا عن البيع والشراء فلم تقم لهم سوق ، ويسمون من يخرج بالتجارة الداجّ . ويقولون هؤلاء الداج وليسوا بالحاج . وقيل : كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقهم في الجاهلية يتجرون فيها في أيام الموسم . وكانت معايشهم منها ، فلما جاء الإسلام تأثموا ، فرفع عنهم الجناح في ذلك وأبيح لهم ، وإنما يباح ما لم يشغل عن العبادة ، وعن ابن عمر رضي الله عنه :

(111) أن رجلاً قال له : إنا قوم نكري في هذا الوجه وإن قوماً يزعمون أن لا حج لنا ، فقال : سأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم عما سألت فلم يردّ عليه ، حتى نزل { لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ } فدعا به فقال : أنتم حجاج . وعن عمر رضي الله عنه أنه قيل له :

هل كنتم تكرهون التجارة في الحج؟ فقال : وهل كانت معايشنا إلا من التجارة في الحج .)

وكما تكرر لفظ التقوى فى الربع السابق تكرر في هذا الربع {وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (189)},{ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (194) },{ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (196) الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ (197)}

فهذه أربعة مواضع .

وكما جاء الحديث فى آخر ربع (ليس البر) ينبهنا إلى التناقض بين عبادة الاعتكاف وبين أكل أموال الناس بالباطل جاءت بداية ربع(واذكروا الله) بنفس التنبيه إلى التناقض بين ذكر الله فى شعيرة الحج وبين الفساد فى الأرض {وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى

وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (203) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (204) وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ (205) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (206) } وتلك هى علة فصل الآية الأولى من الربع عن آخر الربع السابق مع أن السياق واحد وهو الحديث عن الحج

وفى هذا الربع جاء الموضع الثانى والأخير فى السورة الذي ذكر فيه اسم الله الرءوف {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (207)} وكلا الموضعين يتحدثان عن العبادة وأن الله يترأف بجهد العبّاد وبذلهم

ثم ابتدأ ربع (يسألونك عن الخمر) وفصل عن سابقه لأنه بداية المسائل المعطوف عليها حيث عطف عليها السؤال عن النفقة واليتامى والمحيض ولم تعطف على سابقتها من السؤالات لأنها مسألة من مسائل المشركين وهى (يسألونك عن الشهر الحرام قتال

فيه) وعلاقة بداية الربع بما قبله أن القتال حفظ خارجي للمجتمع والمسائل المذكورة حفظ داخلي وقد جاء ذكر القتال والحجاب في سورة الأحزاب وجاء القتال ورعاية النساء والأهل في سورة التحريم وجاء ذكر التمكين في الأرض في سورة النور بعد الحديث عن آداب الاستئذان ولي كلام يحسن هنا نقله قلت فيه (&فى سورة التحريم قال تعالى (يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير)

ماقبل هذه الآية حديث عن النساء وما بعدها حديث عن النساء

- والمناسبة ان عوامل حفظ المجتمع من المهلكات الخارجية بالقتال والداخلية من أهمها قضية المرأة فهما مفسدان باغ .....وبغى

سورة الأحزاب فيها اقتران قضية الحجاب والنساء بالقتال مثال ما جاء فى تفسير ابن كثير(يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفورا رحيما (59) لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك

فيها إلا قليلا (60) ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا (61) سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا (62)

يقول تعالى آمرا رسوله صلى الله عليه وسلم تسليما أن يأمر النساء المؤمنات ـ خاصة أزواجه وبناته لشرفهن ـ بأن يدنين عليهن من جلابيبهن ليتميزن عن سمات نساء الجاهلية وسمات الإماء والجلباب هو الرداء فوق الخمار قاله ابن مسعود وعبيدة وقتادة والحسن البصري وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعي وعطاء الخراساني وغير واحد وهو بمنزلة الإزار اليوم قال الجوهري :

الجلباب الملحفة قالت امرأة من هذيل ترثي قتيلا لها :

(تمشي النسور إليه وهي لاهية ... مشي العذارى عليهن الجلابيب)

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رؤوسهن بالجلابيب ويبدين عينا واحدة وقال محمد بن سيرين سألت عبيدة السلماني عن قول الله عز وجل : { يدنين عليهن من جلابيبهن } فغطى وجهه ورأسه وأبرز عينه اليسرى وقال عكرمة

تغطي ثغرة نحرها بجلبابها تدنيه عليها وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو عبد الله الطهراني فيما كتب إلي حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن ابن خيثم عن صفية بنت شيبة عن أم سلمة قالت لما نزلت هذه الاية { يدنين عليهن من جلابيبهن } خرج نساء الأنصار كأن على رؤوسهن الغربان من السكينة وعليهن أكسية سود يلبسنها وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو صالح حدثنا الليث حدثنا يونس بن يزيد قال وسألناه يعني الزهري هل على الوليدة خمار متزوجة أو غير متزوجة ؟ قال عليها الخمار إن كانت متزوجة وتنهى عن الجلباب لأنه يكره لهن أن يتشبهن بالحرائر المحصنات وقد قال الله تعالى : { يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن } وروي عن سفيان الثوري أنه قال : لا بأس بالنظر إلى زينة نساء أهل الذمة وإنما نهى عن ذلك لخوف الفتنة لا لحرمتهن واستدل بقوله تعالى : { ونساء المؤمنين } وقوله : { ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين } أي إذا فعلن ذلك عرفن أنهن حرائر لسن بإماء ولا عواهر قال السدي في قوله تعالى : { يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين

عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين } قال كان ناس من فساق أهل المدينة يخرجون بالليل حين يختلط الظلام إلى طرق المدينة يتعرضون للنساء وكانت مساكن أهل المدينة ضيقة فإذا كان الليل خرج النساء إلى الطرق يقضين حاجتهن فكان أولئك الفساق يبتغون ذلك منهن فإذا رأوا المرأة عليها جلباب قالوا هذه حرة فكفوا عنها وإذا رأوا المرأة ليس عليها جلباب قالوا هذه أمة فوثبوا عليها وقال مجاهد يتجلببن فيعلم أنهن حرائر فلا يتعرض لهن فاسق بأذى ولا ريبة

وقوله تعالى : { وكان الله غفورا رحيما } أي لما سلف في أيام الجاهلية حيث لم يكن عندهن علم بذلك ثم قال تعالى متوعدا للمنافقين وهم الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر { والذين في قلوبهم مرض } قال عكرمة وغيره هم الزناة ههنا { والمرجفون في المدينة } يعني الذين يقولون جاء الأعداء وجاءت الحروب وهو كذب وافتراء لئن لم ينتهوا عن ذلك ويرجعوا إلى الحق { لنغرينك بهم } قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أي لنسلطنك عليهم وقال قتادة لنحرشنك بهم وقال السدي لنعلمنك بهم { ثم لا

يجاورونك فيها } أي في المدينة { إلا قليلا * ملعونين } حال منهم في مدة إقامتهم في المدينة مدة قريبة مطرودين مبعدين { أينما ثقفوا } أي وجدوا { أخذوا } لذلتهم وقلتهم { وقتلوا تقتيلا } ثم قال تعالى : { سنة الله في الذين خلوا من قبل } أي هذه سنته في المنافقين إذا تمردوا على نفاقهم وكفرهم ولم يرجعوا عما هم فيه أن أهل الإيمان يسلطون عليهم ويقهرونهم

- ولتراجع باقى السورة

& أما سورة النور فالمناسبة فيها مذهلة حيث نفهم منها أن تبصر الأطفال المبكر بالعورات ينافى تمكين الأمة

وهى ملحوظة ترج كيان المصلحين فى زماننا (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون (55)وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون (56) لا تحسبن الذين كفروا معجزين في الأرض ومأواهم النار ولبئس المصير (57

يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم (58) وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم (59) والقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحا فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة وأن يستعففن خير لهن والله سميع عليم (60)]

ثمّ ابتدأ ربع (والوالدات) بعد انتهاء الحديث عن الطلاق وقد جاء ذكر الطلاق بعد ذلك في ربع والوالدات لكنه الطلاق الذي لا عدّة بعده بخلاف المذكور في ربع (يسألونك عن الخمر) وكما فصل بين الطلاقين فصل بين حكمي المتوفى عنها زوجها مراعاة للوحدة الموضوعية فالآية الأولى تتحدث عن العدّة (وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ

أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (234)والآيات بعدها

والثانية عن المتعة (حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ (238) فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (239) وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (240) وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (241)

وسنلاحظ مجيء الحديث عن الصلاة في الأمن والخوف وهو القتال في ثنايا أحكام النساء لأن الصلاة تحفظ البيوت والصلات بين الأسرة وتحديدا صلاة العصر الوسطى لما في مصنف ابن أبي شيبة ((2) حدثنا هشيم عن حجاج عن نافع عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من ترك العصر حتى تغيب الشمس من غير عذر فكأنما وتر أهله وماله).

وتحفظ الولاء بين المسلمين عموما وهم حال القتال أشد ما يكونوا حاجة لهذا الولاء فتجب من باب أولى لا أن وجوبها في السلم أولى وقد مر قوم موسى بحال خوف فكان الأمر الإلهي (فَمَا آَمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (83) وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آَمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ (84) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (85) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (86) وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآَ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (87) }

ثم ابتدأ ربع (ألم تر) بمسألة الإحياء بعد الإماتة وتلك علة الفصل لأنها هى المسألة التي انتظمت هذا الربع والربع الذي بعده فكانت آخر آية قبل الأخيرة

في الربع {فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآَتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (251)} فبين

سبحانه أن هذا النوع من القتال فيه صلاح حياة البشر وعدم فساد الأرض وكذلك حكما كحكم داود عليه السلام

ومن حكمة الفصل أيضا تكرر جملة (ألم تر)

وقد ختم ربع والوالدات بقوله تعالى (كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (242)} وختم ربع ألم تر{ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (252)} فتشابهت الخاتمتان وكان ربع ألم تر عشرة آيات كاملة

ثم ابتدأ ربع (تلك الرسل) وعلاقته بسابقه واضحة { وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (252)

تِلْكَ الرُّسُلُ } وقد ورد هذا المعنى في سورة النساء{إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (163) وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا (164) رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (165) لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ

أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (166) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا (167) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (168) }

وقد وضحت انتظام مسألة الحياة والموت للربع

فعيسى عليه السلام أيد بروح

وآية الكرسي في بدايتها الحديث عن كمال الحياة لله تعالى إيجابا وسلبا

ثم الإخراج من الظلمات إلى النور وعكسه وهما حياة وموت

ثم كانت المحاجة بين إبراهيم والنمروذ التى ابتدئ فيها بذكر الإحياء والإماتة

ثم قصة عزير

ثم قصة إبراهيم عليه السلام والطير

ثم الحديث عن الصدقات وإنماء الله لها كما ينمى الله النبات ويحييه بالماء في آخر الربع وفي أول الذي يليه والحديث عن الصدقة كماء ونماء جاء في سورة التوبة (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ

وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (103)

وفي سورة الحديد جاء الحديث عنها كوسيلة لإحياء القلوب (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آَمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (16) اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآَيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (17) إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ (18)

فذكر سبحانه وتعالى في الآية الأولى قسوة القلوب ثم بين لنا أنه قادر على إحيائها كما يحيى الأرض بعد موتها ثم بين لنا وسيلة الإحياء وهى الصدقة

وكان عدد آيات الربع كسابقه عشرة آيات

ثم ابتدأ ربع (قول معروف) وعلة الفصل فيه أن الآيتين قبله تحدثتا عن جزاء الصدقة ونماءها ثم ابتدئ الحديث فيه عن التفريق بين الصدقة الباطلة والمقبولة

وقد تكرر اسم الله (الغني) مرتان في الربع

وقد قصر هذا الربع عن سابقه ولاحقه قصرا ملحوظا مما يدل على أن التقسيم غير كمّي خاصة أن هذا القصر نشأ عنه وجود أقل من نصف ربع في آخر السورة وهذه فرصة جيدة للتيقن من طبيعة تقسيم السلف للأرباع

ومن ناحية أخرى فقد كانت الفرصة متاحة أمامهم لمراعاة الكم في هذا الربع بالذات للتشابه بين آخره وأول ربع (ليس عليك هداهم) فالآية قبل الأخيرة من هذا الربع نصها {وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (270) } وفي الآية الأولى من الربع التالي {وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (272)} فتشابها حديثا عن الظلم والنفقة

وفي الآية الأخيرة من ربع (قول معروف) { إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (271)} وفي الآية الثالثة من الربع التالي {الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (274) }

والتفريق والفصل أن الآيات في ربع (قول معروف) يغلب عليها بصفة أساسية التعريف بصفات الله فالله سبحانه واسع عليم يهب جزاء النفقة الحكمة وهي خير كثير أما في الربع التالي فالحديث عن الهداية كجزاء للصدقة

وفي ربع (قول معروف) جاءت التوفية للنفقة والنذر بدون ذكر مباشر وإنما من خلال مسألتين الأولى :قوله تعالى (فإن الله يعلمه) أي سيجازيكم . الثانية :(وما للظالمين من أنصار) أي أن الله يكره الظلم وبالتالي لن يظلمكم كأن التوفية نوع من كراهية الظلم وهذا معنى بديع يستفاد منه أن كراهية القبيح والنجس يكون سببا للعمل الحسن الصالح ومما يدل على أن هذا هو المعنى المقصود في الآية ما جاء في سورة آلعمران {وَأَمَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (57) } وفي سورة الشورى {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (40) }

فمحور الآيات كما ترى هو صفات الله سبحانه وتعالى بخلاف الربع التالي

هذا وقد جاء الحديث عن النفقة وعن الربا بدون عطف ولا فاصل مما يعني وحدة القضية { الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (274) الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (275) يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (276) }

وكانت القضية الثالثة بعد الحديث عن الصدقة كمقابل للربا الحديث عن المداينة الصحيحة كبديل للربا وهو المداينة الفاسدة ثم ابتدأ الربع الأخير من السورة (وإن كنتم على سفر) بالحديث عن نوع ثالث من المداينة وهو الرهن وعلة الفصل أن هذه الآية جاء الحديث فيها عن الأمانة التي يستغنى بها عن الرهن تلاها الحديث عن كتمان الشهادة وأن الله عليم والآية التالية حديث عن علم الله بما نبدي ونخفي ونكتم والتي تليها عن الإيمان وأركانه والعلاقة

بين الإيمان والأمانة جاءت في رواية البيهقي (عن أنس بن مالك قال قلما خطبنا نبينا صلى الله عليه وسلم أو قال النبي صلى الله عليه وسلم إلا قال في خطبته لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له)

تمت بحمد الله تعالى